الفصل الأول

ما المراهقة ؟

قد يبدو لفظ « المراهقة » « Adolescence » لأول وهلة واضح المعنى ، وفى غير حاجة إلى تفسير . فالأصل اللاتينى المشتق منه هذا اللفظ فى اللغة الإنجليزية لا يعنى أكثر من أن الفرد « ينمو حتى يبلغ رشده » . وكلنا يعلم أن ما يحدث للطفل منذ أن كان جنيناً إلى أن يصبح رجلاً أو امرأة هو أنه يجتاز مرحلة من نمو تفضى به إلى الرشد . وما دام الأمر كذلك فما الداعى إذن لكتابة كتاب كامل عن موضوع يعرفه جميع الناس ؟

ولو صح أن الموضوع واضح المعالم بهذه الصورة ، فلن تكون ثمة حاجة عندئذ إلى إضاعة جانب كبير من وقت طلبة علم النفس التربوى فى مناقشته وتفصيله . ولكن هل الأمر حقيقة على هذه الدرجة من البساطة ؟ لنتعم أولا نظرنا قليلا فى هذه العبارة : « الفرد ينمو حتى يبلغ رشده » .

فما الطفل وما الراشد ؟ إنه لأمر شاق حقيقة أن نحاول وضع قائمة بالفروق بين الاثنين ، فقد يكون من اليسير أن يفكر المرء فى هذه

الفروق ، ولـكن من العسير أن يحدد المهم منها وما يدل عليه ، إذ لا يكاد الباحث الأمين يبدأ هذه المحاولة حتى يجد نفسه وقد سقط فى يده ، وغلب على أمره ، ولـكنه مع ذلك لن يكون الخاسر ، لأن ما يتبدى له من جهله سوف يهديه إلى النقطة التى ينبغى عليه أن يبدأ منها بحثه ، وعندئذ سيجد نفسه فى موقف يتيح له أن يفـكر بعناية فيما يتضمنه لفظ « النمو » من معنى عميق . فهو يتساءل : ما طبيعة عملية النمو ؟ وأى نوع من النمو يجعل من البنت امرأة ، ومن الغلام رجلا ؟

وهنا أيضاً ينبغى عليه أن يقر بجهله ، حتى يكون موقفه موقف الرجل الذى لا يعرف وأن يعرف أنه لا يعرف ، أو الرجل الذى يقول كما يقول المثل العربى « أن شعوره بجهله قد أيقظ عقله ، وأعده لأن يتعلم » . ولقد كان معظم من كتبوا عن المراهقة من علماء النفس الإنجليز أو الأمريكيين ، الأمر الذى جعل معرفة اللغة الإنجليزية ضرورية للإلمام بما كتبوه . كما أن ما كتب فى هذا الموضوع كان مبنياً على ما أجرى من تجارب على اليافعين فى إنجلترا وأمريكا . ولـكن من المأمول أن يتاح للعالم العربى فى مدى سنوات قليلة أن يتناول هذا البحث نفر من الباحثين المدربين الذين يستطيعون دراسة نمو الأطفال الشرقيين ، مما سيعين دون شك على توسيع دائرة علمنا بمشكلة النمو . ولن نتكلم الآن عن كيفية تأثر عملية النمو بشتى العوامل الاجتماعية والثقافية ، فإنه مما لا شك فيه أن إلمامنا بالحقائق الخاصة بنمو الأطفال فى البلاد العربية والهندية ، سوف يجعل ما نعرفه عن النمو

أكثر دقة ووضوحاً مما إذا اكتفينا بنتائج الدراسات التى أجريت على الأطفال الإنجليز والأمريكيين .

وقد اعتاد أحد كتاب التربية فى بريطانيا أن يتحدث عن الأطفال ، ويصفهم « بصغار الرجال » . ومثل هذا الرأى شائع مألوف ، لأننا إذا سألنا الكثيرين عما يكون الصبى فى نظرهم أجابوا دون تردد : « إن الصبى رجل صغير » . فهل هذا الرأى صحيح ؟ وما معناه ؟ أتراه يعنى أننا لو استطعنا وضع الصبى تحت عدسة مجهر ضخم لتبدى لنا رجلا ؟ لا شك فى أن هذا خطأ بيّن . أم تراه يعنى أن الطفل يملك كل ما للرجل بشكل أقل نضوجا ؟ قد يكون هذا أقرب إلى الصواب ، وهو ما عبر عنه أحد الشعراء الإنجليز بقوله :

« إننا لسنا سوى أطفال كبار » .

إن الكثيرين ممن يقرءون هذا قراءة سطحية سوف لا يترددون فى الاقتناع بوجاهته ، إذ ليس ثمة شك فى أن عدداً كبيراً من الرجال والنساء يسلكون فى كثير من الأحيان مسلك صغار الأطفال . ومع ذلك فإن الدقة العلمية تقتضينا ألا نقبل أى رأى لمجرد أنه معقول ، بل لا بد قبل كل شىء أن نخضع الحقائق للبحث والتمحيص . وإن قليلا من التفكير المتزن فى هذه الجملة التى أوردناها يكشف لنا عن مدى الخطأ الذى وقع فيه الشاعر ، فإن النمو ليس مجرد كبر الحجم .

ولكى نوضح معنى هذا القول نطلب إلى القارىء أن يقوم بزيارة

أحد المتاجر الكبيرة فى لندن أو القاهرة أو الإسكندرية ، وأن يتفقد مختلف أقسامها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى متجر صغير . فقد دلت الدراسة فى كثير من الحالات على أن المتجر الكبير كان فى الأصل حانوتاً صغيراً ، ولكنه لم يكبر من حيث الحجم فحسب ، أى أن نموه لم يكن مقصوراً فقط على ازدياد مساحته وعدد نوافذه وأبوابه ، وكبر موائد البيع فيه ، وكثرة بضائعه ، وتضاعف عدد عماله ، ولكنه شمل أيضاً وجود كميات جديدة من البضائع لم تكن به من قبل . كما أن زيادة كميات البضائع اضطرت إدارة المتجر إلى تنظيمه بشكل لم يكن من قبل ضرورياً فى الحانوت الصغير ، إذ قسم إلى أقسام يصلح كل منها لأن يكون متجراً قائماً بذاته يختص بنوع معين من البضائع ، وله مديره الخاص . فليست هناك إذن زيادة فى مقدار كل شىء فحسب ، واتساع فى المكان ، ولكن هناك أيضاً تنظيم داخلى ضرورى لضمان حسن سير العمل الذى لا بد منه لنجاح التجارة . فنمو الحجم مضافاً إليه التنظيم الداخلى الملائم قد مكن المتجر الكبير من أداء قدر من الخدمات يفوق ما يستطيعه عدد كبير من المتاجر الصغيرة . وبذلك كان المتجر الكبير أكثر قوة وأوفر ربحاً من أية مجموعة من الحوانيت الصغيرة . ولسنا نعنى فقط أن متجراً أكبر بمقدار خمسين مرة من الحانوت الصغير يجعل فى استطاعته أن يربح أكثر مما يربحه خمسون حانوتاً صغيراً ، ولكن أهم ما نعنيه هو أن فى وسع المتجر الكبير أن يؤدى من العمل ما لا يستطيعه أى عدد من المتاجر الصغيرة .

وشبيه بهذا ما يحدث للكائنات الحية عندما تنمو ، فإن هذه الكائنات لا تكبر حجما فحسب ، بل يحدث فيها تنظيم داخلى يجعل فى مقدورها القيام بوظائف جديدة . فالرجل الذى يكون فى حجم ثمانية أطفال لا يستطيع فقط أن يعمل ثمانية أمثال ما يقدر أحدهم على عمله ، بل إنه يستطيع أيضاً أن يعمل ما لا يقدر عليه مائة منهم . فهو ليس أضخم جرماً وأشد قوة من ثمانية منهم فقط ، ولكن أجهزته الداخلية أيضاً قد أصابت من التنظيم ما يمكنه من أداء أعمال ليست فى مقدور أحد منهم .

والتفكير فى الموضوع بهذه الطريقة يجعل فى وسعنا أن نكوّن فكرة صحيحة عن النمو . فالنمو عملية تتضمن بجانب كبر الحجم تنظيما مستمراً كذلك . ولكن ينبغى علينا أن ندرك أيضاً أن هذه العملية فى مجموعها ليست رتيبة منتظمة ، بل إنها تتم على مراحل معينة .

ويوضح التشبيه الذى ذكرناه هذا الرأى أيضاً . فإذا فرضنا أن صاحب الحانوت الصغير ظل زمناً يتجر فى مجموعة متنوعة من البضائع ، فإنه سيجد نفسه مضطراً بعد حين إلى زيادة كمية بضائعه ، وهذا يعنى اتساع نطاق عمله ، ويستمر الحال على هذا المنوال ، فيزيد التاجر من مخزون بضاعته حتى يكتظ بها حانوته ، ثم إن زيادة كميات البضائع ، وعدد العملاء ، وضيق المكان ، خليقة بأن تفضى إلى اضطراب فى العمل ، وارتباك فى حركة التعامل ، مما يضطر الرجل بعد برهة من الزمن إلى استئجار الحانوت المجاور ، وإزالة الحواجز ، واستخدام مساعد يعينه فى عمله .

وتنجح الخطة الجديدة ، فيزول ما أصاب العمل من اضطراب ، وعندئذ يقول الرجل لنفسه : « أعتقد أن ازدياد عدد العملاء بهذا الشكل يجعلنى فى حاجة إلى إضافة أنواع جديدة من البضائع لبيعها لهم » ، فإذا كانت تجارته حتى الآن مقصورة على بيع أنواع الأقمشة فقط ، فإنه قد يبدأ فى الاتجار بالأحذية وما إليها أيضا .

ولسنا فى حاجة لتفصيل ما قد يصيب تجارة الرجل من ازدهار ورواج ، فإن ازدياد المبيعات قد يفضى مرة أخرى إلى حالة من الاضطراب والفوضى ، وعندئذ يجد نفسه فى حاجة إلى حانوت ثالث يضمه إلى حانوتيه ، ثم إلى أنواع جديدة من البضائع زيادة على الأقمشة والأحذية ، وهكذا حتى ينتهى به الأمر إلى وضع الخطط لمواجهة التطورات المنتظرة ، فيستعين بالمهندسين والمقاولين فى إقامة بناء خاص يناسب حالته التجارية ، وما يتوقعه لها من نمو . وهكذا نستطيع أن نتصوره وقد أصبح تاجراً كبيراً ناجحاً ، يعود بذاكرته إلى الوراء فيقول : « لقد تم النمو فى تجارتى فى سلسلة من المراحل بدأت بفتح الحانوت الصغير ، ثم إضافة الحانوت المجاور ، وجعل الاثنين متجراً واحداً ، وأعقب ذلك بيع الأحذية إلى جوار الأقمشة ، ثم مرحلة ضم الحانوت الثالث ، وبيع ملابس الرجال أيضا ؛ وأخيراً جاءت مرحلة بناء متجرى الكبير وما يضمه من مختلف الأقسام لبيع ملابس السيدات والرجال ، والأقمشة ، والأحذية ، والمواد الغذائية ، والكتب ، وأدوات الكتابة ، والأدوات المنزلية » .

هذا المثال لا يوضح لنا كيف يتم النمو فى مراحل فحسب ، و إنما يوضح أيضاً خصائص هذه المراحل . فهناك نمو فى الحجم ، وهـذا يستلزم إعادة التنظيم الذى تعقبه مرحلة نمو أخرى تتطلب بدورها تنظيما جديداً وهكذا . فالحاجة إلى إعادة التنظيم تتولد عن الاضطراب والفوضى . ولذلك نستطيع أن نتكلم عن مراحل للنمو ، تفصل كل منها عن سابقتها فترات انتقال ، تبدأ بحالة من الاضطراب ، وتنتهى بإعادة التنظيم الذى يستغل فيه مزايا المرحلة السابقة ، و يمهد السبيل لمغانم لاحقة .

و بمثل هذا نجد أن نمو الكائنات الحية يتم على مراحل . وهذا رأى أجمع العلماء عليه ، و إن اختلفوا فيما بينهم على عدد المراحل ، أو على الأعمار التى يحدث فيها الانتقال من مرحلة إلى أخرى وقد تكلم شـكسبير فى مسرحية « كما تهواه » عن سبع مراحل إذ قال :

« يمثل الرجل فى حياته أدواراً كثيرة ، تقع فى فصـول سبعة من الأعمار . فهو يبدأ رضيعاً يموء و يتلوى بين ذراعى مربيته ثم يكون تلميذاً كثير الجلبـة والصياح ، يأخذ طريقه إلى المدرسة برما ضجراً متباطئاً كالقوقعة ، بوجهه الصبوح المشرق وحافظة كتبه الجلدية . ثم نراه بعد ذلك عاشقاً تتصاعد منه الزفرات لافحة كأنفاس النتور ، يقرض الشعر الحزين الذى يتغزل فيه بحواجب حبيبته . ثم يكون جندياً مسرفاً فى القسم بأغلظ الايمان ، ملتحياً كالفهد ، غيوراً على الشرف ، سباقاً إلى اقتحام المعارك سعياً وراء الصيت الأجوف ، حتى ولو كان من أفواه المدافع . بعد

فلك نراه قاضياً منتفخ البطن ، ذا قلنسوة مزركشة ، وعيون نفاذة قاسية ، ولحية مشذبة ، ورأس حافل بقديم الحكم وحديث الأمثال . ويظل يلعب هذا الدور حتى ينتقل إلى المرحلة السادسة من حياته حيث يكون كالمهرج ، يعلو أنفه منظاره ، وإلى جواره كيس تبغه ، وقد كست أقدامه الضامرة جوارب القديمة الصغيرة ، وأصبح العالم مترامى الأطراف أمام ساقيه المتخاذلتين ، ويدب الوهن إلى صوته الذى كان من قبل ممتلئاً قوياً ، فيصبح شبيهاً بصفير الصغار . ثم ينتهى هذا التاريخ العجيب بطفولة ثانية ، ونسيان ، فلا أسنان ، ولا بصر ، ولا ذوق ، ولا شىء على الإطلاق . »[1]

فهل هذه « الأعمار » التى ذكرها شكسبير هى « المراحل » التى نتحدث عنها ؟ سأترك هذا السؤال معلقاً فى الوقت الحاضر .

حدث منذ عدة سنوات أن واحدة من أمهات المجلات الانجليزية اعتادت تخصيص قسم فيها بعنوان « فترات مختلفة فى حياة العظماء » ، كانت تنشر فيه مجموعات من صور مشاهير الرجال والنساء . فكنت ترى إحدى هذه المجموعات مكونة من صور مختلفة تمثل الشخص فى ستة الأشهر الأولى من عمره ، ثم فى عامه الحادى عشر ، ثم فى سن العشرين . وتأتى بعد ذلك بخمس أو ست صور له فيما بين سن الثلاثين ، والرابعة والثلاثين ، ثم أخرى وهو فى الخامسة والأربعين ، فالخمسين ، فالستين . ثم صورة له فى كل عام بعد ذلك حتى الثامنة والستين . وكانت كل واحدة من هذه

(1) W. Shakespeare : " As You Like It " Act II, Sc. vii.

الصور تختلف بطبيعة الحال ، فى قليل أو كثير ، عن الصور التى قبلها والتى بعدها ، ومع ذلك فإن الصدفة كانت تلعب دوراً كبيراً فى انتقاء تلك المجموعات ، ولذلك لا يمكن القول بأن للأعمار التى تمثلها أية دلالة حقيقية بالنسبة إلى نمو الشخص .

ولكن الصورة التى رسمها لنا شكسبير لم تكن من وحى المصادفات وهنا ينبغى أن نذكر أن هذه الصورة قد جاءت فى مسرحية ، وأن شكسبير كان ينظر إلى الشخص الذى يصفه بعين الممثل أو مؤلف التمثيلية ، لا بعين الجراح أو عالم النفس أو رجل التربية ؛ ولذلك أبرز من خصائص مراحل النمو ناحية تتصل بالزى والحركة والحديث ، فعنى بتصوير ما يرتديه الشخص الذى أتى على وصف تطور حياته ، ونوع حركاته ، وأسلوب كلامه وذلك فى كل فترة من فترات حياته ، وهى حياة الرجل الانجليزى المهذب فى فى العصر التيودورى ، لأن أطفال الطبقة العاملة لم يكونوا فى ذلك الحين يذهبون إلى المدرسة متأبطين حافظات كتبهم ، كما أنهم لم يكونوا يملكون من الوقت مايستطيعون إنفاقه فى قرض «الشعر الحزين» ، وكانوا يتخذون من الانتظام فى سلك الجندية وسيلة للرزق وكسب العيش ، لا لاقتناص « الصيت الأجوف » . كذلك لم يكن القضاة يختارون من عامة الشعب ، بل من طبقة ملاك الأراضى . ولهذا كله لا يجدر بنا أن نتوقع أن تكون «الأعمار السبعة» التى عرضها شكسبير صورة صادقة لنمو الأطفال العاديين ، وإن شكسبير نفسه لم يقصد بها أن تكون كذلك . ولو أردنا أن نخضعها

للفحص والاختبار لا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا أن كاتب المسرحيات لا يستطيع أن يبسط الحقائق كما يبسطها العالم أو الرياضى أو الفيلسوف ، وذلك لاختلاف طريقة كل منهم عن طريقة الآخر .

وقد جعل شكسبير الحياة تبدأ بمرحلة طفولة وتنتهى بمرحلة طفولة أخرى ، و بين هاتين الطفولتين تبلغ الحياة ذروة النمو ، ثم يصيبها الانحلال و يمثل الجندى المرحلة الوسطى منها ، فهو الرجل العملى الذى بلغت قواه الجسمية غاية الاكتمال . أما حياة القاضى فتصور لنا اضمحلال هذه القوى الجسمية ، إذ يصبح رجل الفكر والحكم الذى يستخدم خبراته فى توجيه حياة الآخرين . ثم يعقب ذلك فترة تعود فيها خصائص التلميذ إلى الظهور إلى درجة ما ، مما يوحى بحلول النكوص محل التقدم . وأخيراً يعرض لنا شكسبير صورة من الضعف والتواكل هى « الطفولة الثانية » أو النكوص إلى حياة المهد . و يمكن التمثيل لذلك جميعه بالشكل الآتى :

(٤)

الجنـــدى

وهو الرجل المكتمل النمو ، المعتز بذاته ،
الميال إلى العدوان ، الجم الحيوية والنشاط
ذو النزعة العملية ، السريع إلى الحسم والتنفيذ

(٣)

العـاشق

ويغلب على تفكيره الخيال العاطفى

(٥)

القـاضى

وهو ذو الخبرة الناضجة ، الذى يستطيع تطبيق ثمار خبراته وعلمه على مواقف الحياة ، ولكنه لم يعد قادرا على بذل المجهود الجسمى الكبير .

(٢)

التلميـــذ

وهو طالب العلم

(٦)

المضحك

وهو المنطوي على نفسه ، الذى يحتاج فى حياته إلى عون الآخرين وما هم ، وينزع إلى النكوص إلى حالة التوا كل التى تميز الصفوة المبكرة .

(١)

الرضيع

وهو الذى لا يستطيع الاستقلال بنفسه

(٧)

الهـرم

وهو الذى لا يستطيع الاستقلال بنفسه

من هذا نرى أن الشكل يمثل نظرة واضحة إلى حياة الإنسان ، ويبقى علينا بعد ذلك أن ننظر فيما إذا كان من المستطاع أن نكمل ما فيه من نقص حتى يقبله علماء النفس والمربون على أنه صورة صادقة لناحية من علم الإنسان.

إن شكسبير يصور لنا اليافع أثناء انتقاله من الحداثة إلى الرجولة فى صورة « العاشق » الذى يعبر عما يختلج فى أعماق نفسه من اضطرابات وجدانية بالزفرات وقرض الشعر الذى يتغزل فيه بجمال فتاته . ولاشك أن مؤلفى المسرحيات والشعراء القصصيين يهتمون أشد الاهتمام بالفتى الذى يقع أثناء تقدمه الحثيث نحو الرجولة الناضجة فى هوى فتاة لم يستطع الحصول عليها لنفسه لعدم اكتراثها به ، أو لظروف أخرى . فروميو ، وترو بلس وهاملت ، وأورلاندو صور للشباب العاشق فى مسرحيات شكسبير ، وهم فى الوقت نفسه أشد العشاق صبابة ووجداً ، أما أنطونيو وعطيل فهما أكبر سناً ، وأكثر نضجاً ، ولذلك نراهما يجمعان بين « الجندى » و « العاشق » فهما من الرجال العمليين الذين لا يقنعون بمجرد إرسال الزفرات ، وقرض الشعر الحزين .

فهذا التمنى الذى لا يتم التعبير عنه بالعمل العنيف الحاسم ، بل فى الفكر والخيال ، هو الذى يميز اليافع الذى يصفه شكسبير فى مسرحياته ؛ إذ نراه لا يحاول أن يخطف معشوقته من بيت أبيها العنيد كما يفعل عطيل ولورنزو ، أو يفتح بحد سيفه إمبراطورية من أجل المرأة التى يحبها كما يفعل أنطونيو .

هذا اليافع ، أو « العاشق » فى روايات شكسبير هو الذى ينبغى أن يكون موضع اهتمامنا لأنه هو « المراهق » أى الكائن الحى الناشئ الذى بدأ يخلف الحداثة وراءه فى طريقه إلى الرجولة والاكتمال . فهو ليس مجرد « عاشق » كما أنه لاينفق كل حياته فى إرسال الزفرات وقرض الشعر ، ولا يعيش فى عالم لايضم سواه هو وفتاة أحلامه ، لأن أمامه مهام أخرى لابد له من النهوض بأعبائها ، إذ عليه أن يعيش فى الحاضر ، وأن يعد نفسه للمستقبل . وهكذا تصبح الصورة التى رسمها له الكاتب المسرحى ناقصة ، ولابد من تكميلها قبل ان يرضى عنها العلماء و يقتنع بفائدتها المربون .

وقد رأينا أثناء تفصيل نمو الحانوت الصغير حتى غدا متجراً كبيراً أن كل فترة من التقدم المنتظم كانت مسبوقة بحالة اضطراب يعقبها تنظيم جديد وكثيراً مايضطر المتجر إلى إغلاق أبوابه أثناء ذلك ، وهذا ماتشير إليه تلك اللافتات التى تعلق على واجهة المتاجر فى مثل هـذه الظروف معلنة العملاء بأن « المحل مغلق مؤقتاً لإعادة تنظيمه » . ونلاحظ حدوث ما يشبه ذلك عند بعض الحيوان . فالفراشة تبدأ حياتها على شكل دودة تنمو نمواً مستمراً وهى لاتشبه الفراشة فى شىء ، لا فى نوع الغذاء ، أو عادات العيش ، أو أسلوب الحركة والسلوك . و بعد قليل نراها تلجأ إلى مكان هادىء غـير مطروق حيث تقيم فى أمان وسكون ، وتكسو نفسها بشرنقة قوية البنيان ثم تسكن حركتها و يفتر نشاطها مدة من الزمن . وفى داخل الشرنقة يطرأ

على هـذا الـكائن الحى تغيرات كبيرة ، حتى أن الـكثيرين يعجزون عن إدراك وجود أية علاقة بين الدودة التى دخلت الشرنقة والفراشة التى خرجت منها ، فقد اختفى الفكّان القويان اللذان كانا يساعدان الدودة على التهام الحشائش بنهم وشراهة ، وحل محلهما خرطوم رفيع تمتص به الفراشة غذاءها من رحيق الأزهار . كذلك تعتمد الفراشة فى انتقالها من مكان إلى آخر على أجنحتها الناعمة السريعة الحركة . وهكذا يرى الناظر إلى الفراشة اختلافات كبيرة بين الدودة الزاحفة وهذا الطائر الرقيق الذى يشبه أوراق الزهور الملساء التى يحط عليها . وعالم الحشرات وحده هـو الذى يستطيع إدراك أوجه الشبه بينهما بالملاحظة الدقيقة .

فأمامنا مثال رائع لمرحلتين متميزتين من مراحل النمـو تفصلهما فترة إعادة تنظيم واضحة ، إذ لدينا مرحلة الدودة ومرحلة الفراشة ، و بينهما مرحلة الشرنقة التى يحدث الانتقال فى داخلها أما الـكائنات البشرية فإن مايطرأ عليها لا يكون بهذا الوضوح والتحديد ، لأن الرجال والنساء لا يمرون فى أى طور من أطوار نموهم بحالة سـكون تام تشبه طور التشرنق ، بل إن حياتهم تظل سائرة فى طريقها كما قد يستمر المتجر فى كثير من الأحيان فى ممارسة أعماله العادية أثناء الفترة التى يعيد فيها تنظيمه . ولذلك لا يـكون من اليسير إدراك وجود فترة انتقال عند وقوعها .

ومع ذلك رأينا أن إعادة التنظيم فى المتجر قد جاءت فى أعقاب حالة

من الفوضى والاضطراب . فإن النظـام الذى ظل مدة من الزمن وافياً بالغرض منه قد أصبح لا يلائم ما استجد من الظروف . وإذا حاولنا الآن تطبيق ذلك على حياة الكائن البشرى لاحظنا أنه يعيش فى مكان معين ، فى محيط مجتمعه الإنسانى . وهو يستطيع أن يحيا فى هذا المجتمع كما يحيا سائر الأفراد إذا عرف كيف يسلك مسلكهم ، فإذا نقلناه إلى مجتمع آخر فإنه يحس الحرج والاضطراب . فالقروى الذى ينزح إلى المدينة ، أو ساكن المدينة الذى ينتقل إلى الريف ليعيش فيه ، يجد أن عليه أن يغير من أسلوبه حياته الذى اعتاده وألفه ، أى لا بد له من أن يغير نوع عمـله ، وطريقة استغلال وقت فراغه ، ومستويات راحته ، وغير ذلك . فعليه أن يتعلم أشياء كثيرة جديدة ، وأن يهمل أخرى قديمة كانت مألوفة لديه . وبمجرد أن يعتاد حياته الجديدة قدر اعتياده لحياته السـابقة ، وليس قبل ذلك ، يشعر بالاطمئنان ، ويزول عنه ما كان قد اعتراه من قلق وبرم واضطراب . أو بعبارة أخرى أن متاعبه لا تزول حتى يتمكن من أن يـكيف نفسه للبيئة الجديدة .

ولـكن ليس من الضرورى أن يـكون تغير البيئة وحده هو الذى يفضى إلى اضطراب فى عملية التكيف ، فإن التغير قد يكون داخلياً ، كما يحدث عندما يجد الفرد أن ما كان يثير اهتمامه من النـاس والأشياء قد أصبح غير مثير لهذا الاهتمام ، وأن ما كان يتعشقه من ضروب العمل غدا

تافهاً فى نظره ، وأن هواياته فقدت ما كان لها من جاذبية . ويستمر الحال على هذا المنوال حتى يكتشف ألواناً جديدة من الاهتمام والأصدقاء والهوايات والأعمال ، أى حتى يتكيف من جديد . ويستطيع كل راشد ، يشعر بنجاحه فى حياته ورضاه عنها ، أن يعود بذاكرته إلى تلك الفترات التى كان يحس فيها بعدم الرضى أو الارتياح ، وذلك كى يتبين ما اضطر إلى عمله حتى تمكن من ملاءمة نفسه لهذه الحياة . فنحن جميعاً كائنات متغيرة ، نعيش فى عالم متغير ، ونحتاج فى كثير من الأحيان إلى إعادة التكيف حتى نحيا حياة ناجحة سعيدة .

ولنصرف النظر عما يحدث من تغييرات فى العالم الخارجى وفى المجتمع الذى نعيش فيه ، ولنستعرض ما مر بنا من فترات كنا نحس فيها بالقلق وعدم الرضى عن حياتنا ، الأمر الذى يشير إلى فشل التكيف ، ويضطرنا إلى إعادة تنظيم قدراتنا الداخلية ، ولنسأل أنفسنا : هل كانت هذه الفترات خاصة بنا وحدنا أم أنها تحدث لجميع الكائنات البشرية فى فترة النمو نفسها التى حدثت لنا فيها ؟ وعندئذ سنجد أن من خصائص الطبيعة البشرية أن تقدم الإنسان يضطرب مؤقتاً عند سن معينة تقريباً بسبب الإخفاق فى التكيف للبيئة ، وما يصحب ذلك من قلق عقلى ، وعدم ارتياح نفسى ؛ وأن هذا التقدم يظل على تلك الحال من الاضطراب حتى يحدث تكيف جديد . وما دام الأمر كذلك فإننا نستطيع أن ننظر إلى حياتنا على أنها

سلسلة من مراحل النمو المنتظم التى يفصل بعضها عن بعض فترات من الاضطراب و إعادة التنظيم . و يمكننا أن نمثل لذلك بالشكل الآتى :

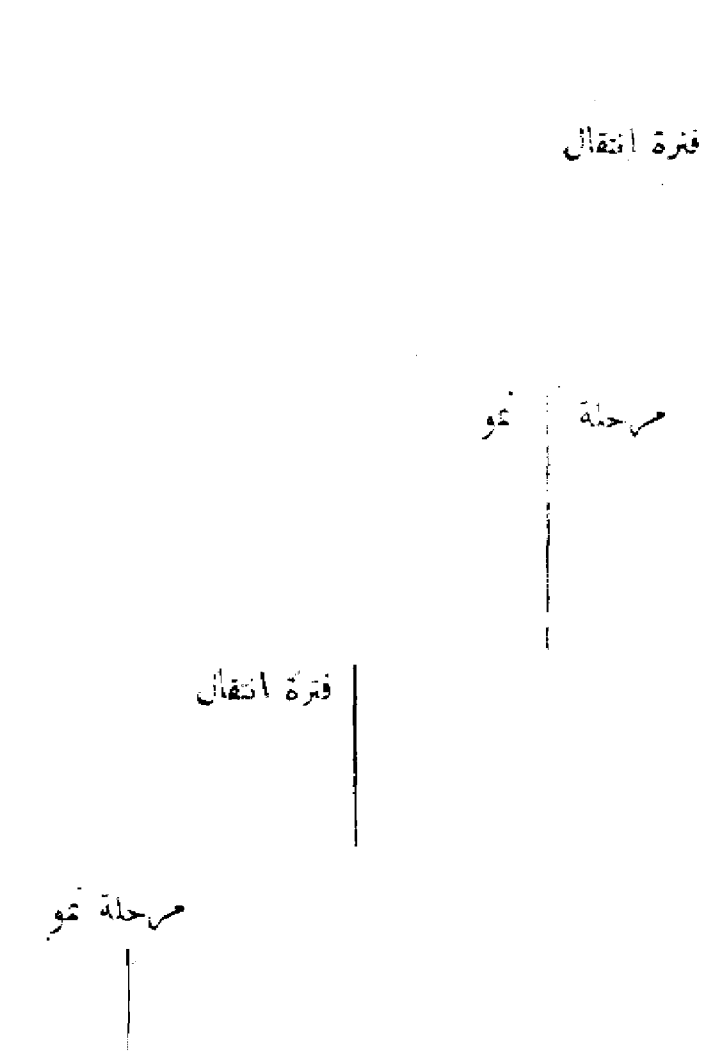

وقد يكون فى وسعنا الآن أن نلخص المشكلة الحقيقية التي ستواجهنا فى مناقشة موضوع المراهقة بالصورة الآتية : هل تفصل حياة البنت عن حياة المرأة ، وحياة الغلام عن حياة الرجل مرحلة نمو لها خصائص معينة ،

تبدأ بضرورة التكيف للحياة من جديد ، ونستمر على صورة نمو منتظم ، ثم تنتهى بظهور الحاجة مرة أخرى إلى تكيف جديد ؟ إذا كان هذا صحيحاً فإننا نستطيع عندئذ أن نتكلم عن مرحلة « المراهقة » .

لقد كان الذين يكتبون فى موضوع المراهقة فى الماضى يتكلمون عن حدوث تغيرات مسرحية مفاجئة فى حياة الفرد ، ويصفون المراهقة بأنها الوقت التى تصبح حياة الناشىء فيه حافلة بالعواصف العقلية والمتاعب ، مليئة بالآمال الخلابة واليأس القاتل ، وذلك عقب مرحلة الطفولة السعيدة الخالية من المسئولية . هذا بلا شك عرض خيالى وليس عرضاً علمياً ، ولا يصدقه إلا من عاش فى عصر تسيطر فيه على تفكيره شخصيات المؤلفات الرومانتية مثل ڤرتر وما نفرد وتشيلد هارولو . أما اليوم فقد انقلب الوضع ، وبلغ الأمر أقصى الطرف المقابل ، فأصبح من المألوف أن يقلل الناس من قيمة التغيرات التى تصحب المراهقة ويصغّرون من شأنها . ولكن قد يكون من الحكمة أن نشتق لأنفسنا طريقاً وسطاً ، فنبحث عن الأسباب التي تفضى إلى ظهور هذه التغيرات ، وذلك فى ضوء ما نعرفه عن التغيرات الجسمية التى تحدث للكائن الحى .